تسخير الكنيسة للدين
من أجل إشعال فتيل الحروب الصليبية

م.د. ياسين خضير حسن
وزارة التربية
المركز الوطني لتطوير المناهج والتقويم

المقدمة :

تعد الحروب الصليبية الظاهرة الأبرز التي ميزت العصور الوسطى ، وقد مثلت مادة خصبة لأدبيات الباحثين الغربيين والمسلمين فتناولوا بالبحث والتحليل والاستنتاج أحداث حملاتها المتعددة ومن جوانب مختلفة، وذلك لما انطوت عليه من آثار وتحولات تاريخية كبيرة انعكست سلبا وايجابا على جانبي الصراع. لقد دأب مؤرخو الحروب الصليبية التقليدين على تسمية الحروب الصليبية بالحروب الدينية التي نشبت بحسب رأيهم لأسباب وغايات دينية بحتة تمثلت باسترداد بيت المقدس من سيطرة المسلمين السلاجقة، وانها انطلقت تحت رعاية الكنيسة، الا ان أغلب المؤرخين المحدثين يرون ان الأسباب الدينية كانت أحد العوامل المهمة التي أدت الى نشوب هذه الحرب لكنها لم تكن بمعزل عن عوامل أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية خاصة بالمجتمع الأوربي تضافرت مع بعض فكانت السبب الحقيقي لانطلاقة هذه الحروب ولم يكن العامل الديني الاّ أداة سُخرت من اجل التحشيد لهذه الحرب وأقناع بسطاء المؤمنين الأوربيين بسمو الدافع لهذه الحرب مستغلين عاطفتهم الدينية ليكونوا وقودا لها. وكان لخطبة البابا أوربان الثاني التي القاها في مجمع كليرمونت جنوب فرنسا سنة ١٠٩٥م اثرها في نفوس المسيحيين المجتمعين هناك، اذ الهبت حماسهم بشكل كبير وأصابتهم بحالة هستيرية عبر عنها المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون بأنها "نوبة من الجنون" بعد ان أجج عاطفتهم الدينية بشكل كبير وأوصلهم الى قمة الحماس الديني، فكانت هذه الخطبة بمثابة الإعلان للحرب الصليبية على المسلمين، وبالفعل انطلقت على اثرها الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٦م نحو بلاد الشام والتي نتج عنها احتلال المنطقة وتأسيس عدة أمارات صليبيه هناك.

مفهوم الحركة الصليبية

تعددت المفاهيم الخاصة بالحركة الصليبية بحسب النوافذ التي أطل منها المؤرخين المتخصصين لمناقشة الموضوع، مثلت الحروب الصليبية ذروة في الصراع بين الشرق والغرب، وقد أختلف المؤرخون في تحديد الدوافع التي تقف ورائها، فمنهم من يرى انها حلقة من حلقات الصراع التقليدي القديم بين الشرق والغرب المستمر منذ عهد الفرس واليونان ثم

بين الفرس والروم وحينها لم يكن الدافع دينيا بقدر كونه صراع حضاري بين حضارتين مختلفتين في التفكير والنضج واسلوب العيش ،وهذا الصراع لا يمت الى الدين لكونه حدث في عصور كان فيها الشرق والغرب كلاهما وثنيين. ودعاة هذا الرأي يرون ان الصراع بين الشرق والغرب هو صراع متجذر قديم وهو يهدأ ثم ما يلبث ان ينفجر من جديد، وقد وجد متنفسا له في الحروب الصليبية اذ دخل السبب الديني سببا مهما للخلاف بين اتباع الديانة الاسلامية والمسيحية[١] ، ويرى آخرون ان الحروب الصليبية تمثل الحلقة الأخيرة من حلقات الهجرة الاستيطانية التي رافقت سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦م والذي تثمل بهجرة اعداد غفيرة من سكان الامبراطورية نتيجة الخوف والهلع الذي اصابهم نتيجة دخول البرابرة الى بلدانهم، اذا كان رعايا الامبراطورية ان لاحياة لهم بدون الامبراطورية لأنها تمثل الاستقرار والامان لهم ، فشكل سقوطها هزة عنيفة اصابتهم بالهلع نتيجة دخول القبائل الجرمانية[٢]، ولكن لا توجد لدينا مؤشرات تدل على هجرة استيطانية بهذا العدد، فضلا عن كونها سلسلة من الهجرات امتدت لعشرات السنين وانحصر توجها لمنطقة الشرق الادنى بشكل مخصوص. ويذهب فريق آخر الى انها جاءت نتيجة حتمية لعملية الاحياء الديني التي بدأت به الكنيسة في غرب اوروبا في القرن العاشر متمثلة بالحركة الكلونية[٣]، والتي بلغت أوجها في القرن الحادي عشر الميلادي، اذ عادت فيها البابوية الى سطوتها السابقة واصبح تشرف بكل مباشر على كنائس غرب اوروبا وادت الى تقويه الجهاز الكنسي وربطة بكنيسة روما، الامر الذي اثار نوعا من الحماس الديني في غرب اوروبا، ولكن مهما توترت العلاقات في اوروبا كان هنالك مبدأ سلم الرب[٤]،والذي انهى الحروب والصراعات الى حد ما في اوروبا ، لذلك ظهر شعور قوي في اوروبا في القرن الحادي عشر يدفع باتجاه الرغبة البحث عن متنفس خارجي يستهلك تلك الطاقة الكبيرة التي نتجت عن حركة الاصلاح الديني في غرب أوروبا وعندما كان الاوربيين يحجون الى المشرق منذ القرن الرابع والخامس الميلادين ولكن بشكل فردي تفقد تطورت عملية الحج باتخاذها طابعا جماعيا اذا يخرج مئات من الحجيج يقودهم اسقف او نبيل يتجهون من غرب أوروبا الى الاماكن المقدسة في الشام[٥].ويرى دعاة هذا الفريق ان ما حدث في مرحلة الحروب الصليبية وخصوصا في سنه ١٠٩٥م هو عملية استمرار لحركة الحج الجماعي مع تغير في جديد تمثل بأن بعثات الحج اصحبت مسلحه، اذ بلغ حجاج حملة عام ١٠٦٤ مع رئيس اساقفة مينز سبعة الاف حاج حمل قليل منهم السلاح بدعوى الدفاع عن ارواحهم في سيرهم للحج، وربما كان ذلك بسبب الاخبار السيئة التي كانت تردهم عن سوء معاملة السلاجقة للحجاج المسيحيين بعد استيلائهم على الاماكن المقدسة في الشام، الامر الذي جعلهم يؤمنون بضرورة استخدام القوة لتأمين الحجاج انفسهم[٦]، لكن هناك من يرى من الاوربيين بان العرب لم يضايقوا الحجيج

وانهم كانوا متساهلين جدا، وان بسط النفوذ الاتراك على بلاد الشام لم يتعرض للحجيج الى الاماكن المقدسة[٧]. وهنالك رأي يقول بان الحروب الصليبية تمثل وسيلة للانطلاق من قيود العصور الوسطى الى حياة أوسع أفقا ، فكثير من الاوربيين كانوا يشعرون بضيق والقيود من العيش في التزامات الكنيسة ورجالها، فكان تجاوبهم سريعا مع دعوة الحروب الصليبيةالتي اعلنتها الكنيسة في وقت سابق، فضلا عن رغبة البيزنطيين في استرجاع السيطرة على الاماكن المقدسة في الشرق من ايدي المسلمين ، وعد ذلك من المهام المقدسةنظرا للارتباط الروحي بين المسيحين وتلك الاراضي التي ولد فيها عيسى عليه السلام وبشر فيها برسالة السماوية[٨].وذلك رغبة منهم في التخلص من القيود المفروضة عليهم من جهة وتطلعهم الى حياة افضل[٩].

الاسباب التي دفعت الى قيام الحروب الصليبية

أتسمت الحروب الصليبية في ظاهرها باتخاذها طابعا دينيا بارزا، لكن هنالك اسباب متعددة تقف وراء انطلاقتها تمثلت :

١-الدافع السياسي

لقد شملت الحروب الصليبية قاعدة واسعة تمثلت باشتراك مختلف طبقات المجتمع الاوربي فيها فهي لم تشتمل على الفقراء وعامة الناس وانما اشترك فيها الاقطاعيين والملاك والتجار فضلا عن عدد من الملوك والامراء غرب اوروبا مثل ريتشارد قلب الاسد وفردريك بربروسا وفيليب اغسطس وفردريك الثاني ولويس التاسع عشر، وقد كان خروجهم للحرب بضغط من الكنيسة وخوفا من تهديداتها لهم بالطرد والحرمان الكنسي، وكان هؤلاء يتنافسون فيما بينهم في الحصول على ممالك وامارات اكثر يضيفونها الى ممتلكاتهم في اوروبا، فضلا عن اشتراك الامراء والفرسان الذين كان عدد كبير منهم بدون اقطاعيه او املاك في اوروبا فكان الامل يحدوهم بالحصول على املاك في الشرق[١٠]،خصوصا بعد ان وصل اليهم الحديث والوصف عن سحر الشرق وخيراته، الامر الذي يفسر استجابتهم السريعة لنداء البابا بالاشتراك بالحروب الصليبية[١١]. وان مما يفسر طبيعة السبب السياسي في قيام الحروب الصليبية هو الصراعات والنزاعات المسلحة التي نشبت بين أمراء وفرسان الحملات الصليبية قبل وصولهم الى بيت المقدس، بل انهم وبعد استيلائهم على بلاد الشام وتأسيس ممالكهم هناك لم يتورعوا من التحالف مع المسلمين والاستنجاد بهم ضد ابناء جلدتهم من الصليبيين الامر الذي يدلل على ضعف الوازع الديني في هذا الامر.

٢- الدافع الاقتصادي

دفعت النزاعات الاهلية بين الامراء والاقطاعيين في اوروبا الى ان ساءت الاوضاع الاقتصادية المتردية في الغرب الاوربي وفرنسا خصوصا الكثير من الفرنسيين الاشتراك في

الحروب الصليبية، لغرض الحصول على مكاسب يعوضون خسارتهم فيها وقد كان للمدن التجارية[١٢] ولاسيما الايطالية دور واضح في تجهيز الحملات الصليبية من خلال نقل المتطوعة بسفنهم ومساعدتهم في الاستيلاء على موانئ بلاد الشام، وكانوا يبغون من وراء ذلك مزيدا من الكسب المادي اذ حصل هؤلاء على امتيازات اقتصادية تفردوا بها على من سواهم من خلال شمولهم بالإعفاء من الرسوم الجمركية ومساعدتهم في بناء الخانات والاسواق والحمامات والمخابز[١٣]. ويوضح لنا النص الذي أورده برنارد لويس نقلا عن مؤرخ الحملة الصليبية الاولى " فوكلر أوف تشارتر" قوله (وأما من كانوا فقراء هناك فقد أغناهم الله هنا، ومن كان خاوي اليدين الا من دريهمات معدودات، اصبح لديه من القطع الذهبية مالا يحصر عده ومن لم تكن لديه قرية أصبح يمتلك مدينة برمتها ، فلماذا نعود الى الغرب اذا كان الشرق يهيئ لنا كل ذلك)[١٤]. ويتضح لنا ان احد اهم الاسباب التي دفعت الاوربيين في المساهمة بالحروب الصليبيةهو لغاية المنفعة المادية الشخصية، وان الذين ساهموا بفاعلية في الحملات الصليبية لم يتحكم بهم الوازع الديني بقدر ما تتحكم بهم مصالحهم الاقتصادية ولم يكن همهم المغامرة من اجل انقاذ بيت المقدس من ايدي الاتراك ولا تأمين طريق الحج او خدمة الكنيسة ، لكنهم وجدوا في الصليب الوسيلة التي يحققون من خلالها حلمهم.

٣- الدافع الاجتماعي

عانى المجتمع الاوربي من تمايز طبقي واضح طيلة حقبة العصور الوسطى أدى الى تقسم المجتمع الى ثلاثة طبقات وهم رجال الكنيسة وطبقة الفرسان من النبلاء وطبقة الفلاحين من المزارعين والعبيد والاقنان بدون ادنى حقوق، كانت عيشتهم منحطة للغاية والفلاحين كانوا مثقلين بعديد من الالتزامات الاقطاعية لسيدهم بالسخرة وبدون مقابل[١٥]، وكانت الطبقة الثالثة تفني عمرها بخدمة الطبقتين السابقتين من رجال الكنيسة والامراء الإقطاعيين، لقد وجدهؤلاء البسطاء في الدعوة للحروب الصليبية فرصة الخلاص من الحياة المذلة والمهينة الى درجة انهم فضلوا الموت في الحرب على العيش في المجتمع الاوربي[١٦].

٤- الدافع التاريخي

عاش المسيحيين بحرية واسعه في كل البلاد الاسلامية وكان الحجيج يأتون الى الاماكن المقدسة في الشام ويؤدون شعائرهم بحرية تامه، وذلك منذ العهد العمري الذي وقع مع بطريرك كنيسة القدس ، لكن مجيء الحاكم بأمر الله الفاطمي (٩٩٦م-١٠٢١م) بشخصيته المثيرة للجدل قد اثار الاوضاع كثيرا جدا، ذلك انه عرف بتعصبه الشديد ضد المسيحيين مما عكس صورة سلبية اثرت في تحشيد الرأي العام الاوربي المسيحي ضد المسلمين واعطت مبرر للكنيسة لتحقق هدفها الذي تسعى اليه، أذ أمر في عام ١٠١٠م

بمنع النصارى من تزيين كنائسهم في عيد الشعانيين، وحبس جماعة من المحتفلين وصادر الاملاك المحبوسة على الكنيسة، قم قام بهدم جميع كنائس القاهرة ونهب ما فيها، ثم قام بهدم كنيسة القيامة في القدس وازالة قباب كنائس القدس ومصادر جميع ممتلكاتها واموالها[١٧].ويذكر انه (في العام ١٠١١م أصدر الحاكم بأمر الله اوامر مشددة بمنع عيد الصليب والغطاس وعيد الشهيد ... وخربت كنائس مصر وابيحت وهدم بعد ذلك دير القصير ثم قتل بطريرك الاسكندرية ارساينوس نفسه)[١٨]، ويبدو ان العلاقة المتوترة بين الفاطميين والبيزنطيين كان لها ابلغ الاثر في الاجراء القاسي الذي اتخذه الحاكم بأمر الله الفاطمي المعروف بشخصيته الغامضة، وماعدا هذه الحالات لم يتعرض الحجيج المسيح الى اية مضايقات من قبل السلطة الاسلامية على مر العصور، وربما تعرض بعض الحجيج لهجمات قطاع الطرق من السراق كما حدث في حملة الحج لعام ١٠٦٤م، ذلك ان المسيح وعلى مر التاريخ الاسلامي عاشوا بين المسلمين بكل حرية يمارسون طقوسهم في الكنائس والاديرة بكل حرية وكان عليهم دفع مبلغ الجزية السنوي وتتعهد الدولة بحمايتهم وتأمينهم، وقد عمل بعض منهم في الادارة الاسلامية والبعض منهم عمل طبيبا للخلفاء في العصر العباسي. ولاتوجد لدينا اي ادلة على ممارسة اضطهاد ممنهج من قبل الحكومات الاسلامية موجه ضدهم عدا ما ذكرت في حالة الحاكم بأمر الله الفاطمي.

الاصل الديني لفكرة الحروب الصليبية

بعد ان ناقشنا اسباب ودوافع الحروب الصليبية المختلفة تبين لنا ان هنالك عوامل متعددة اسهمت او هيأت لانطلاق الحروب الصليبية كان من ضمنها العامل او الدافع الديني ،لكنه لم يكن العامل الوحيد او الابرز، لقد ذهب اغلب الباحثين القدامى الى ان العامل الديني هو الاساس الذي يعول عليه في تفسير ظاهرة الحروب الصليبية، الا انني ارى أنه كان سببا من ضمن الاسباب لكنه لم يكن السبب الحقيقي، مع انه لايمكن اهمال دوره في تأليب الرأي العام المسيحي الغربي وتهييج عاطفة عامة مسلمي غرب اوروبا ضد المسلمين بدعايات مضلله كاذبه جهزت على ضوؤها الحملة الصليبية الاولى.

أضطر الامبراطور اليكسوسكومنين ونتيجة للضغط العسكري المتزايد الذي عانت منه الدولة البيزنطية وعجزها عن مواجهته الطلب النجدة من امبراطور الفلاندر عام ١٠٧٨م-١٠٨٨ الذي استجاب لطلب النجدة واستنجدت ايضا بالبابا أوربان الثاني اكثر من مرة في دفع هذه الاخطار[١٩]، ثم اتجه الى طلب النجدة من البابا اوربان الثاني لان الكنيسة اصبحت تسيطر على مجريات الامور في اوروبا سياسيا واقتصاديا وعسكريا. فكر البابا أوربان الثاني في الأمر، ووجد أنه لو استغل هذه الفرصة واستجاب لطلب الإمبراطور البيزنطي وعلى نطاق واسع سوف يحقِّق عدة أهداف في غاية الأهمية، فأنه سيعيد أظهار

دور الكنيسة في حياة مسيحيي اوروبا الغربية، حيث سيحمل البابا من جديد دعوة تهمُّ كل الشعوب الأوربية والمسيحية بشكل عام، وهذه دعوة ستوصل الناس الى الغفران الذي يبحث عنه الناس آنذاك بين يدي البابا ،سيقوم البابا بحملة عسكرية تشمل التنسيق بين ممالك وإمارات اوروبا المختلفة، وسيكرس السلطة كلها فهو بذلك سيستعيد سلطان الكنيسة العسكري والسياسي على كامل اوروبا، وسيكون للكنيسة عقوبات رادعه قد تصل الى الحرمان الكنسي في حالة رفض احد الملوك او الامراء وتسحب الثقة وتأييد رعاياه منه، وقد يؤدِّي ذلك إلى سقوط حكمه، وبالتالي يصبح البابا هو الشخصية الأولى في اوروبا سياسيًّا كما هو دينيًّا.

وستمكن الحرب البابا أوربان الثاني من تحقيق هدفه بضم الكنيسة الشرقية تحت سيطرته وتعزز سلطته بشكل كبير ويبدو انها الفرصة التي كان ينتظرها والحرب ستحسن من مكانة اوروبا اقتصاديا فالبلاد التي ستفتح ستدر أموالاً كثيرة، والأوربيون الذين لن يستطيعوا المشاركة سيدفعون للكنيسة الأموال تكفيرًا عن عدم امكانية الحج الى فلسطين، وان الثروات التي ستأتي من الشرق الغني بمصادر الثراء، ستسهم في المشاكل الاقتصادية الطاحنة التي تعاني منها اوروبا، وبذلك ستسهم في معالجة الأوضاع الاقتصادية المتردية في اوروبا، وانه سيتمكن من ان يصرف طاقات اوروبا العسكرية إلى حرب خارجية ينفسون فيها عن قدراتهم ويستنزفون فيها رغباتهم العنيفة، وذلك بدلاً من التصارع الداخلي بين الإمارات والإقطاعيات الأوربية وبما يضمن وقف القتال المسيحي– المسيحي ، وستشن اوروبا الصليبية حربًا على العدو التقليدي للبابا اوربان الثاني وهم المسلمون، وسيقوم البابا بتلبية نداء آلاف الفقراء الذين يموتون في اوروبا سنويًّا نتيجة الجوع والمرض والبرد، وسيشعر الجميع بذلك بالرضا نحوه كونه المنقذ لأوروبا وللمسيحية . ومن هنا فإن البابا تحمَّس كثيرًا للطلب الذي طلبه الوفد البيزنطي إنه جعل الوفد يقابل المجمع الكنسي المجتمع في بياكنزا في إيطاليا آنذاك؛ ليعرض صورة الوضع في الشرق، وذلك يكون أبلغ في التأثير في القساوسة الذين جمعهم البابا من كل انحاء اوروبا، وتكلم البابا مؤيدًا لكلام الوفد البيزنطي، وقرر أن يُعِدَّ العدة لأخذ التدابير اللازمة لغزو الشرق الإسلامي لنصرة البيزنطيين.

ولتحقيق هذه الغاية قرَّر أوربان الثاني أن يعقد مجلسًا كنسيًّا كبيرًا في كليرمونت يضم القساوسة من أطراف اوروبا الغربية، وذلك لبحث أحوال الكنيسة المتردية، وفي نهاية هذا المجلس الكنسي عقد مؤتمرًا موسعًا يدعو إليه أمراء الإقطاعيات المختلفة، وكذلك الملوك إن أمكن، بل ويدعو إليه عامَّة الشعب؛ ليصبح مؤتمرًا جماهيريًّا مؤثرًا، وفي هذا المؤتمر سيدعو إلى التوجُّه عسكريًّا إلى فلسطين.

افتعال الاساطير لخدمة اهداف الكنيسة في المشرق

لقد شاعت في أوروبا الغربية مع نهاية الالفية الاولى نهاية القرن العاشر الميلادي وبداية القرن الحادي عشر اساطير تتحدث عن قرب نهاية العالم مع اكتمال الالفية الاولى بعد المسيح حوالي (١٠٣٣م) وقد فسرت بعض الظواهر الطبيعية والفلكية على انها دليل على نهاية العالم ، وقد تداول مجتمع اوروبا الغربية هذه الاساطير ذلك ان افكار مجتمع غرب اوروبا كان مثقلا بالأساطير اذ كان الدين مزيجا من الخرافة مع بعض تعاليم المسيحية وكان الافراد الذين سيطرت على وجدانهم المشاعر الالفية والاخروية تواقين لضمان الخلاص فكانت فكره الحج الى بيت المقدس فأنعكس ذلك على زيادة عدد الحجيج الى الشام وكان من اشهر تلك الحملات هي حملة الحج العظمى سنه ١٠٦٤م والتي حملت معها العديد من الامراء بحلتهم البهية الزاهية التي اغرت السراق وقطاع الطرق الى مهاجمتهم بهدف السرقة الامر الذي ادى الى ان يلقي البعض حتفه بالقرب من مدينة القدس وقد انعكس هذا الحادث على تحول طبيعة الحجاج المسالمين الى تحول حملات الحج الى حج مسلح لغرض حماية انفسهم لكنه تطور فيما بعد الى حركه تستهدف الاستيلاء على المدينة كما حصل سنه عندما احضر الحجاج سيوفهم لغرض الحرب وليس الدفاع عن انفسهم ١٠٩٩[٢٠]، والملفت ان الاساطير والرؤى والتفسير الغيبي لظواهر الطبيعة أضمحلت بعد بدأت الحروب الصليبية وتشير قصة الحربة المقدسة التي اثيرت اثناء حصار انطاكية المزدوج سنة ١٠٩٨م ان تلك الغيبيات بقيت تستخدم في التعبئة وتغذية السذج والفقراء من المقاتلين في الحملة[٢١]. ولقد كانت الأراضي المقدسة في المشرق ذات جاذبية كبيرة للحجاج المسيحيين لارتباطها بحياة السيد المسيحفكان المسيحي يعتقد بأنه بعد الحج سيولد من جديد خالية من الذنوب والخطايا[٢٢]،وقد هيأت حركة الحج فكريا وعمليا للحروب الصليبية، وعرف الحج الاوربيين على الطرق السالكة الى الشرق واعطتهم تصور كامل عن الشرق وخيراته وسحره، وهيجت تعطش الاقطاعيين الذي لا يرتوي الى امتلاك الاراضي في الشرق وكذلك الحال بالنسبة للأمراء والفرسان الذين لا يمتلكون اقطاعيات في اوروبا[٢٣] ،وقد تزايدت حركة الحج بشكل كبير في القرن العاشر الميلادي نتيجة الاستقرار والهدوء الذي طبع المنطقة حتى غدا الحج ظاهرة مميزة في القرن الحادي عشر الميلادي واسعة النطاق تشمل الملوك والامراء والرهبان وعامة الناس من بقاع متعددة في أوروبا ولاسيما الجنود المرتزقة الذين يخدمون في الجيش البيزنطي[٢٤]وكانت الكنيسة قد افادت المجتمع الاوربي بأبعاد المجرمين والمذنبين عنه عدة اشهر او عدة سنوات اذا كان الحج لغرض التوبة، فهم ان قضوا نحبهم بالطريق فقد تخلص المجتمع من تبعتهم وان عادوا بسلام فهم بعد قضاء هذه المدة الطويلة في السفر سيحرصون بدون ادنى شك على المحافظة على وضعهم المتميز الذي حققوه

خلال رحلتهم للحج وشهرتهم الطيبة التي نالوها في مجتمعهم ، وقد قدمت الاديرة المنتشرة على طول طريق الحج تسهيلات كبيرة للحجاج التكفيريين من مسكن ومأكل وضيافة ، وكان التجار الايطاليين والاوربيين يغدقون على هذه الاديرة بالتبرعات فضلا عن التبرعات التي يجمعها الرهبان[٢٥]. ويبدو لنا تزايدت اعداد الحجيج حتى غدت من أهم روافد الحركة الصليبية ، حتى غدت الحركة الصليبية تطورا لظاهرة الحج المسيحي، ذلك انه لا يمكن ان يطرأ على بال احدٍ ما إن الحركة الصليبية يمكن ان تتطور بهذا الشكل لولا تطور حملات الحج المسيحي فبعد ازدياد اعداد الحجيج تطورت فكرة مفادها أنه لابد من ان تكون الاماكن المقدسة بيد الكنيسة وتسترجع من ايدي المسلمين الذين صورتهم الدعاية الكنسية بالكفار المتوحشين ، وهذا بطبيعة الحال لابد ان يكون بحملة صليبية مسلحه.

من هو البابا أوربان الثاني

رأس كنيسة روما ، ولد في العام ١٠٣٥م في شاتيون سيرمان في فرنسا ودرس على يد القديس برنو ، واصبح في العام ١٠٦٨م راهبا في دير كلوني[٢٦]، التحق بخدمة البابا غريغوري السابع وتم تعيينه كاردينال لأسقفية اوستيا في العام ١٠٨٠، وخدم في المانيا ارتبط أوربان الثاني بمجمع سينودس الذي عقد عام١٠٨٥م وعند وفاة البابا فيكتور الثالث في ١٦ديسمبر ١٠٨٧م في مونت كاسينو، تم انتخاب أوربانوحمل اسم أوربان الثاني (١٠٨٨ – ١٠٩٩م)[٢٧]. وقد ارتقى كرسي البابوية لمدة ١١ عاما وامتاز بكونهذكيا ويمتلك حسا سياسيا قويا ، لبقا مفوها يؤثر في سامعيه ، وكان مطلعًا على ما يجري في اوروبا، اشتهر بعدائه وكرهه للمسلمين في المشرق او الاندلس، أذ أيد الحرب ضد المسلمين في اسبانيا، وعند استرداد بعض مناطق اسبانيا من ايدي المسلمين سارع أوربان الثاني لإدخالها ضمن نفوذ كنيسة روما، وفي دعمه الحرب ضد المسلمين كان أوربان الثاني ذا طموح كبير ويسير على خطى البابا غريغوري السابع، كان يأمل بتوحيد الكنيستين تحت سلطة كنيسة روما ،ويسعى للاستيلاد على الاماكن المقدسة في الشرق[٢٨]، مما يشير الى انه كان يطبق فكرة ثابته انتهجتها الكنيسة في حربها ضد الإسلام، ومن ابرز ملامح هذه الاستراتيجية هي توسيع نفوذ كنيسة روما الغربية، وتوحيد الكنائس، ومحاربة الإسلام أينما وجد باعتباره العدو اللدود الذي لا مناص من مواجهته ومحاولة الانتصار عليه بأي ثمن[٢٩]،وقد حاول البابا أوربان الثاني الدعوة لشن حرب صليبية ضد المسلمين في مجمع بياكنزا الكنسي في إيطاليا في آذار ١٠٩٥م، استجابة لدعوة الإمبراطور اليكسوسكومنين (١٠٨١ – ١١١٨م) غير أن مجمع بياكنزا اخفق في تحقيق أهدافه[٣٠]. اشتهر أوربان الثاني بخطبة الشهيرة في مجمع كليرمونت فران الكنسي الذي عقد في يوم ٢٧ تشرين الثاني ١٠٩٥م، أثرها البالغ في نفوس

المسيحيين المجتمعين في هذا المجتمع فقد الهبت حماسهم وأصابتهم وصفها احد المستشرقين الاوربيين بأنها نوبة حادة من الجنون[٣١].

أوربان الثاني ومجمع كليرمونت

عقد البابا أوربان الثاني مجمع ابياكنزا بإيطاليا في مارس ١٠٩٥م أستجابة لدعوة الإمبراطور البيزنطي الكسيوس الأول كومنينوس ١٠٨١/ ١١١٨م ، غير أن البابا قد أخفق في مجمع بياكنزا في الدعوة لشن حرب صليبية ضد المسلمين في الشرق[٣٢] إن إخفاق البابا في مجمع بياكنزا ، لم يثنه عن السعي في تحقيق هدفه بكل الوسائل الممكنة ، فذهب الى فرنسا من لعقد مجمعة الجديد ، وكان جنوب فرنسا التقليدي المحافظ كان بمثابة منطقة تماس مع الحرب التي شنها الإسبان ضد المسلمين في إسبانيا ، بالإضافة إلى أن مجرد طرح الفكرة على الأرض الفرنسية كان من الممكن أن يحقق نجاحاً فورياً من خلال أنها الموطن الأصلي للبابا [٣٣]، وهو أدرى اعرف بها ومدى تأثيره اقوى فضلا عن الضائقة الاقتصادية التي كانت تمر بها، يضاف الى ذلك ان المنطقة كانت على تماس في الحرب مع المسلمين من خلال معركة بواتيه المعروفة لدى المسلمين بمعركة " بلاط الشهداء " ٧٣٢م ، والتي فيها هزم المسلمون وتم وقف المد الإسلامي وإعاقته عن الامتداد فيما وراء جبال البرانس ، من خلال تحليل خطاب البابا في مجمع كليرمنت ، لم تغب عن ذهن ذلك الرجل الحاد الذكاء ، القوي الإرادة منذ أن تربى في أحضان حركة رهبانية الصارمة .. مهما يكن من أمر ، فإن البابا اتجه إلى كليرمنتب جنوب فرنسا وعقد مجمعاً كنسياً هناك وفي اليوم العاشر عقد المجمع الذي تناول فيه العديد من القضايا التي تهم الكنسية ، وهي في غاية الأهمية والخطورة ، وذلك في يوم ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م ومع اننا لا نملك نصا موثقا لخطبة البابا اوربان الثاني في كليرمونت[٣٤] لكن النص الذي ورد في بعض المؤلفات نستف انها كان لها أثرها البالغ في نفوس المسيحيين المجتمعين فبعد أن أنهى البابا خطبته مباشرة صاح المجتمعون صيحة رجل واحد قائلين هكذا أراد الله[٣٥]، وأمام هذا الموقف المؤثر تحركت مشاعر المجتمعين وتدافعوا بالمئات يركعون أمام البابا في حماس منقطع النظير وحملوا الصلبان وحلفوا جميعاً على تخليص المدينة المقدسة ، وجه البابا حديثه إلى الفرنجة من أجل التركيز على البعد العرقي ، وأوضح أن الله قد ميزهم بموقع بلادهم وبعقيدتهم الكاثوليكية ، وعمل على تذكيرهم بالبعد التاريخي من خلال أمجاد شارل مارتلوشارلمان وما قدماه للمسيحية من خدمات جليلة لاسيما في قتالهم للمسلمين في اسبانيا، على نحو عكس أهمية حافز الذاكرة التاريخية في تشكيل تلك الظاهرة التاريخية الكبرى، وأشار البابا إلى أن الاخبار السيئة القادمة من الشرق مفادها أن جنساً ملعوناً وهم عرق ملعون ، عرق غريب تماماً عن الله وهم حقاً جيل لم يتوجه بقلبه أو يعهد بروحه إلى الله ، (ويقصد بذلك الأتراك

السلاجقة) ذبحوا المسيحيين الشرقيين ، وحولوا الكنائس إلى اسطبلات لخيولهم ، وأن دماء أولئك المسيحيين تنادي مسيحيين الغرب من أجل إنقاذهم . واتجه لأثارة مطامع الحاضرين في ثروات الشرق فأوضح أن الأرض في الغرب الأوروبي ولا سيما في فرنسا ضاقت بسكانها وطلب من الناس الذهاب إلى الشرق حيث أرض كنعان التي تفيض لبناً وعسلاً وفي ذلك الدليل الجلي الذي لا جدافيه على أن البعد الاقتصادي للحركة الصليبية كان موجوداً ،وعد البابا كل من يحمل السلاح ويتجه إلى الشرق بالغفران الكنسي لجميع ذنوبه، أما إذا استشهد المرء في سبيل تحقيق هدفه فإنه يعد شهيداً من شهداء المسيحية ،كان البابا يشير إلى بيت المقدس التي شهدت ميلاد السيد المسيح وطهرها بموته وذكر لمستمعيه أنها تناديكم من أجل تخليصها من براثن محتليها من الكفار ، ونجد من الخطاب المنسوب للبابا أن بيت المقدس تحتل مكاناً بارزاً ومحورياً ، وهو أمر منطقي تماماً من خلال مكانتها وقداستها الدينية ، ونجد ان البابا شدد على تدعيم خطابه بعدد من النصوص الواردة في الكتاب المقدس من أجل إثارة الشعور الديني لمستمعيه، وليعطي لخطابه قداسة خاصة، ولقد كان البابا أوربان الثاني بارعاً في عرض أفكاره وكذلك في إخفاء بعضها ، وقد ركز على أمر بيت المقدس حتى يقدم طريق واحداً[٣٦]على الغرب الأوروبي السير فيه دون تردد، ولم يرد في خطبتهما يشير نيته في توحيد الكنائس وإخضاع كنيسة القسطنطينية لسيطرة الكنيسة الأم في روما ، كذلك لم يرد فيه ما يدل على الهدف التبشيري وهو هدف محوري للبابوية من خلال المشروع المرتقب، وتعليل ذلك الإخفاء يكمن في أن البابوية أدركت أن هناك أولويات في طرح المشروع ينبغي عدم تخطيها ، وأن وحدة العالم المسيحي تتطلب عدم تشعيب الأهداف وطرحها حتى لا يغيب الأمر منذ اللحظات الأول لميلاد المشروع ، ولم يفصح البابا عن اهدافه الاخرى ، ويلاحظ أنه في أعقاب إلقاء البابا لخطابه صاح الحاضرون صيحة واحدة وهي الله يريد ذلك ، وكانت صيحة المسيحية لمحاربة الإسلام وأهله ، واتخذوا الصليب شعاراً ومن هنا كانت تسميتهم بالصليبين اذا اخذ الكثيرون يخيطون صلبانا على قمصانهم[٣٧] ،استطاع أوربان الثاني أن يوحَّد شعوب الغرب على الرغم من أن لغات هذه الشعوب وعاداتها المحلية ، واهتمامات أبنائها كانت تختلف اختلافا بيناً ، ولكن الفكرة الصليبية التي جمعت جماهير الغرب الأوروبي لم تكن لتنجح لو لم تكن متوافقة مع حركة المجتمع ، هذا التوافق بين الفكر والواقع وبين التبرير الأخلاقي للحرب تبعا لحالة اوربا التي كانت تخوض صراعات مريرة خلال الحقبة التي سبقت سلم الرب.

ويتضح لنا ان هنالك اسباب عدة تضافرت وادت الى اشتعال الحروب الصليبية الت امتدت لقرنين من الزمن تضافرت فيها حالة اوروبا الاقتصادية ومطامع اهلها من الامراء والفرسان والمدن التجارية والبسطاء من الفلاحين، وان هناك وضعا كان يدفع باتجاه دفع

امراء الحرب الاقطاعين الى خارج اوروبا ليشبعوا غريزتهم من الحروب مع عدو خارجي بدلا من توجيه اسلحتهم بعضا لبعض، فضلا ذلك فان اوضاع سياسية كانت تدفع بهذا الاتجاه ملخصا الحصول على مزيد من الاراضي الغنية والممالك والامارات الاقطاعية، ومن بين هذه العوامل تم تسخير العامل الديني الذي برز من خلال تكيفه وتسخيره لخدمة اهداف اخرى بعيدة عن معانيه وذلك من خلال استغلال جهل اغلب مسيحي اوروبا الغربية بتعاليم الدين ولان صوره المسلمين رسمت بشكل بشع وتم وصفهم بأوصاف سيئة وكان للبابا اوربان الثاني دورا محوريا في استثارة عواطف الاساقفة الذين جمعهم في مجمع كليرمونت وبالتالي الهاب مشاعر المسيحيين الذي يتوقون للوصول الى الاراضي المقدسة في الشام ، لكن اوربان الثاني كانت له اهداف وغايات بعيده جدا جاءتها الفرصة لغرض تحقيقا في ذلك المجمع وكان له ما اراد.

الهوامش :

[١]–عاشور، سعيد عبد الفتاح ، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخالجهاد الاسلامي في العصور الوسطى،(القاهرة،مكتبة الانجلو المصرية ،٢٠١٠) ، ج١ ، ص٢٢

[٢]–المصدر نفسه ، ص٢٣

[٣]– نسبة الى دير كلوني الذي الذي اسسه وليم التقي دوق أوكيتين في كلوني في فرنسا وكان رئيسه يخضع بشكل مباشر لسلطة البابا شخصيا ولم يكن يتدخل زعماء الكنائس او الحكام المحليين في اداره وتوجهات هذا الدير مما اعطاء قوة وحصانة كونه يتبع كنيسة روما بشكل مباشر، انبثقت منه حركة لإصلاح الحياة الرهبانية عُرفت باسم حركة الإصلاح الكلونية التي أسهمت في تقوية الجهاز الكنسي في الغرب الأوربي .ينظر الزيدي، مفيد، موسوعة تاريخ أوروبا ،(بغداد ، دار اسامة للنشر والتوزيع :٢٠٠٣): ج١ ص ٢٨٩.

[٤]– دعت الكنيسة الى هدنة اطلق عليها سلم الرب بين فرسان اقطاعيات أوروبا وذلك في نهاية حقبة الحروب الاقطاعية التي استمرت قرنين ونصف في أوروبا. وقد اسهمت هذه الهدنة بشكل كبير في نزع عسكرة المجتمع الاوربي. ينظر آرمسترونغ ، كارين، الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، ترجمة، سمير الكعكي،(بيروت: دار الكتاب العربي،٢٠٠٥)، ص٩٦.

[٥]–ومن اشهر حملات الحج ، الحملة التي خرجت من نورماندیا سنه ١٠٦٤بزعامة رئيس اساقفة مينز والحملة التي خرجت سنة ١٠٨٩م بزعامة روبرت الاول أمير فلاندرز . للمزيد ينظر:عاشور ، الحركة الصليبية صفحة مشرقة ص٢٣

[٦]–المصدر نفسه ، ص ٢٤

[٧]– إدوار برّوى، وآخرون، تاريخ الحضارات العام – القرون الوسطى، ترجمة يوسف أسعد داغر و فريد م. داغر،(بيروت، عويدات للطباعة والنشر:٢٠٠٦)ص٢١٢.

[٨]– – ينظر المعاضيدي، خاشع وآخرون ،تأريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، (الموصل :دار الكتب للطباعة والنشر–جامعة الموصل،١٩٨١م) ص١٩؛ توفيق ، عمر كمال، العدوان الصليبي على الشرق

العربي ط٢(الاسكندرية : دار المعارف،١٩٦٧)،ص

[٩]- عاشور ، الحركة الصليبية صفحة مشرقة ص٢٤.

[١٠]-طقوش ، محمد سهيل، تاريخ الحروب الصليبية ص٣٣.

[١١]- المعاضيدي وآخرون ، تاريخ الوطن العربي ، ص ٢٤.

[١٢]- طقوش ، محمد سهيل، تاريخ الحروب الصليبية ، حروب الفرنجة في المشرق ،(بيروت، دار النفائس:٢٠١١)،ص٤١.

[١٣]- المصدر نفسه ، ص٢٣

[١٤]- العرب في التاريخ ، تعريب: نبيه أمين فارس،محمود يوسف زايد، ط١(بيروت ، دار العلم للملايين ،: ١٩٥٤م)، صص٢١٦-٢١٧.

[١٥]- عاشور ، الحركة الصليبية ،ج١،ص٣٥

[١٦]- المعاضيدي ، الوطن العربي، ص ٢٤

[١٧]- المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق : جمال الدين الشيال/ (قليوب، مطابع الاهرام : ١٩٧٠)، ص٧٥.

[١٨]- الانطاكي ،يحيى بن سعيد بن يحيى (٤٥٨هـ/ ١٠٦٧م) تاريخ الانطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ، تحقيق عبد السلام تدمري(طرابلس ، كروس بريس: ١٩٩٠) ،ص ١٩٤-١٩٥.

[١٩]- المعاضيدي وآخرون ، الوطن العربي، ص٣٠.

[٢٠]- آرمسترونج، كارين ، القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث ، ترجمة فاطمه نصر و محمد عناني، (القاهرة ، سطور:١٩٩٩)، ص٤٤٣

[٢١]-قصة الحربة المقدسة، تقول بالعثور على الحربة التي اخترقت جسد السيد المسيح علية السلام. ينظر: قاسم، عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، سلسلة عالم المعرفة ، (الكويت ،مطابع السياسة: ١٩٩٠) ص١٣،ص٤٠.

[٢٢]- من اهم المناطق التي يحج اليها المسيحيون الكاثوليك دوما هي قبر القديس بطرس في روما ومزار القديس ميخائيل في مونت جورجيانو في صقلية . والقديس جون في كوميوستيلا في اسبانيا والقدس وبيت اللحم في فلسطين، ينظر : قاسم . ماهية الحروب الصليبية ، ص ٢٣

[٢٣]-زابوبوروف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ترجمة، الياس شاهين،(موسكو، دار التقدم:١٩٨٦) ص٢٤.

[٢٤]-رنسيمان ، ستيفن ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العربي، (بيروت، دار الثقافة: ١٩٦٧) ، ج١، ص ٧٥

[٢٥]- قاسم، ماهية الحروب الصليبية ، صص ٢٠-٢١.

[٢٦]- غروسيه ، رينيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الاسلامي وشرقي البحر المتوسط ترجمة أحمد ايبش(ابوظبي، دار الكتب الوطنية:٢٠١٤م)

[٢٧]- مؤنس، حسين، الحرب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب،ط١ ،(الجيزة ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية:١٩٩٩)، ص ٦٣.

[٢٨]- مؤنس، حسين،الحروب الصليبية: ، صص٦٣-٦٦

[٢٩]– المصدر نفسه ص ٦٥.

[٣٠]–الصلابي، علي محمد محمد، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس،(بيروت ،دار المعرفة:٢٠٠٨ م) ص٣٧.

[٣١]– لوبون، غوستاف،حضارة العرب، ص ٢٣٧.

[٣٢]–مؤنس،الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٦٥

[٣٣]–الموطوي، محمد العروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط٢(تونس، دار الغرب الاسلامي:١٩٨٢)، ص٤٦.

[٣٤]–قاسم ، ماهية الحروب الصليبية، ص٩٠

[٣٥]–غروسيه ، موجز تاريخ الحروب الصليبية ص٣٣.

[٣٦]– قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص٩٢.

[٣٧]– المرجع نفسه ، ص٩١

المصادر والمراجع :

١– ارمسترونج، كارين ، القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث ، ترجمة فاطمه نصر و محمد عناني، (القاهرة ، سطور:١٩٩٩).

٢– ارمسترونغ ، كارين، الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، ترجمة، سمير الكعكي،(بيروت: دار الكتاب العربي،٢٠٠٥)

٣– إدوار برّوى، وآخرون، تاريخ الحضارات العام – القرون الوسطى، ترجمة يوسف أسعد داغر و فريد م. داغر،(بيروت، عويدات للطباعة والنشر:٢٠٠٦).

٤– الانطاكي ،يحيى بن سعيد بن يحيى (٤٥٨هـ/ ١٠٦٧م) تاريخ الانطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ، تحقيق عبد السلام تدمري(طرابلس ، كروس بريس: ١٩٩٠).

٥– توفيق ، عمر كمال، العدوان الصليبي على الشرق العربي ط٢(الاسكندرية : دار المعارف،١٩٦٧).

٦– الزيدي، مفيد، موسوعة تاريخ أوروبا(بغداد ، دار اسامة للنشر والتوزيع :٢٠٠٣) ج١

٧– رنسيمان ، ستيفن ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العربي، (بيروت، دار الثقافة: ١٩٦٧) ، ج١.

٨– زابوروف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ترجمة، الياس شاهين،(موسكو، دار التقدم:١٩٨٦).

٩– الصلابي، علي محمد محمد، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس،(بيروت ، دار المعرفة: ٢٠٠٨).

١٠–طقوش ، محمد سهيل، تاريخ الحروب الصليبية ، حروب الفرنجة في المشرق ،(بيروت، دار النفائس:٢٠١١).

١١–عاشور، سعيد عبد الفتاح ، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الاسلامي في العصور الوسطى،(القاهرة،مكتبة الانجلو المصرية ،٢٠١٠) ، ج١

١٢- غروسيه ، رينيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الاسلامي وشرقي البحر المتوسط ترجمة أحمد ايبش(ابوظبي، دار الكتب الوطنية:٢٠١٤م).

١٣- قاسم، عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، سلسلة عالم المعرفة ، (الكويت ،مطابع السياسة: ١٩٩٠) .

١٤-الموطوي، محمد العروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط٢(تونس، دار الغرب الاسلامي:١٩٨٢)

١٥- المعاضيدي ، خاشع وآخرون ،تأريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، (الموصل : دار الكتب للطباعة والنشر- جامعة الموصل،١٩٨١م).

١٦- المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق : جمال الدين الشيال/ (قليوب، مطابع الاهرام : ١٩٧٠).

١٧- مؤنس، حسين، الحرب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ط١ ،(الجيزة ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية:١٩٩٩).

Yasseen_almasoodi@yahoo.com

Abstract :

The crusades are the most important aspects in the history of middle Ages, which represent significant field for the literature of both Muslims and western researches. They dealt with these topics by analyzing, searching and questioned events of their different aspects and campaigns. Traditional historians of crusades have characterized the crusades as religious wars which, according to their perspective, stemmed from the restoration of Jerusalem from the control of the Muslims under Seljuk.

While most modern historians believe that the religious were one of the majorcauses that led to the outbreak of this war but it is not isolated from other political, economic and social matters of the European society, this chain of events combined to cause crusades. Increasingly, religious factor was only a tool used to convinced believers (Europeans Christians) that religious motivation of this war passion to be fuel of the later wars.